

الموسم

الميراجيون

المستشرق الروسي إيثانوف

من بقايا التاريخ القديم في مواقع رودبار، نجد على يمين ويسار نهر شاه رود بعض القرى الصغيرة في طريقها إلى الاضمحلال. يسكنها الميراجيون الذين لم تتناولهم الدراسات حتى الآن صحيح. وقد ذكرهم بعض مؤلفي العصر الوسيط (القرن الرابع عشر الميلادي) مثل رشيد الدين فضل الله في كتابه (جامع التواريخ) ص ٧٢ وحمد الله مستوفي قزويني (ص ٦٦). ومن المفيد أن نقدم للقارئ بعض هذه الإشارات لعلها تشجع على الاهتمام بهذه الطائفة وتحت من لديه الإمكانيات لكشف معلومات أخرى عنهم فمن سوء حظ هذه الطائفة، مثل بقية الطوائف الأخرى التي تحتفظ بمعتقداتها السرية، إن علماء الدين لم يذكروها إلا بوصفها بالمانوية أو المزدكية، ووصفها بالإلحاد ورقّة الدين وغير ذلك من الأوصاف المتعارف عليها والتي لا يعرفون ما هي ديانة المانويين، ولا أهداف ومعتقدات الحركة المزدكية واعتبروها مجرد أمثلة على الإلحاد والهرطقة وغير ذلك من الأوصاف الخطيرة على الدين وعلى التقوى التي يدعونها. وحتى في العصر الحديث لم تلق هذه الطائفة ترحيباً لدى الزرادشتيين لكن كثرة استفادة أتباعها من عقائد هذه الديانة في الشرح والتفسير والمناقشات يبرهن على انحدار هذه الطائفة مباشرة من (بيه دنيان) (الزرداشتية).

والمهم أن نعرف أنه لم يكن في فارس والعصر الوسيط دين غير الزرداشتية وكل ما وصلنا من التاريخ القديم متأثر بها ومشتق منها وهذا هو سبب الاختلاط في أخبار الميراجيين. ليس بين الميراجيين وجيرانهم أي عداوة ولم أسمع أنهم اضطهدوا، على الأقل خلال العقود الأخيرة، بل يعاملون كالأثني عشريين، مع بعض الخصائص الطائفية ووضعهم هذا شبيه بوضع الإسماعيليين في خراسان (بالرغم من مقتل إسماعيليين اثنين في سنة ١٩١٠).

يعبر الميراجيون بلقب (كيليبوز) (رؤوس الماعز)، نسبة إلى ممارسة خاصة يمارسونها في أضحاحهم وهذا ما يشبه تعبير الإسماعيليين في خراسان وكذلك أهل الحق باسم «بوزغالا» حيث زعموا أن لديهم عادة الاجتماع المختلط من الرجال والنساء من أهل الحق في بيت يضاء بمحرقة لشحم الغنم وفيها عدة فتائل، ويربط بجانبها جدي (بوزغالا) وتبدأ الطقوس الدينية ويعلو الهتاف فيجفل الجدي ويشد المحرقة فتنتفضى، وفي الظلام تبدأ الممارسة الجنسية الجماعية بدون تمييز، أن هذه مجرد خرافات تنسب إلى أهل الحق الإسماعيليين. وإلى كل طائفة تخفي

ذاتها عن الآخرين وقد تكون مقتبسة من معلومات مشوهة عن الهنود الحمر. والزواج الموسمي الجماعي لديهم.

إن عادة التكتم التي تمارسها جميع الأقليات الدينية كانت عاملاً مساعداً للتقية من أجل أن تعيش بين جماعات الأكثرية. أما اليوم عند انحسار التعصب الديني ونمو التواصل الاجتماعي، فإنها لا تسبب أي مشكلة اجتماعية.

لا فائدة من سؤال الميراجيين عن معتقداتهم الدينية، فهم مثل الفلاحين الفرس الأميين، لا يخلصون الموضوع. وتحتاج معهم إلى زمن طويل لتجمع عدداً من المعلومات يؤدي إلى نتيجة معينة. وخلاصة القول إنهم شيعة مؤمنون، مع تقديس خاص للأئمة. إنهم يمارسون الشريعة في المفهوم الشيعي، وحسب (عاداتهم) التي لا تتعارض مع الدين. وينكرون وجود كتب خاصة بهم. مع أننا قد نسمع أن كتابهم الخاص هو (كتاب دانيال) لكن ما قمت به من أبحاث وأسئلة نفت ذلك. وانطباعي العام أنه لا بد من وجود كتاب أو كتب دينية يخفونها. فقد أكد لي أحدهم أن في القرية الثانية نسخة من كتاب دانيال عند فلان من الناس. فإذا سألته فسيقول لك بأنه سمع بوجود هذا الكتاب عند فلان في قرية تالته... وهكذا.

وأخبرني أحد (الثقة العارفين) سنة ١٩٥٧ أن مثل هذا الكتاب موجود فعلاً. وما هو إلا كتاب في الفأل والتنبؤ بالطقس والمحصول وفي العام التالي ١٩٥٨ أخبرني هذا الشخص نفسه بعدم وجود مثل هذا الكتاب. وفي قرية أخرى أيضاً رجل (ثقة وعارف) لا يقل عن الأول، أخبرني أن الكتاب موجود وهو يشبه (كتاب شاه نعمة الله في التنبؤات). كما سألته عن وجود كتب للصلاة فأنكر ذلك لأنهم أميون.

فانطباعي العام عنهم أن ليس لديهم كتب دينية معروفة لكن هؤلاء المؤمنين الأميين، مثل فرقة السارانجام من أهل الحق، قد يكون لديهم بعض الكتب التي يقدسونها ويخفونها عن غيرهم لأنها خاصة بجماعتهم. ثم إن كتاب دانيال، إذا وجد، فليس له علاقة بكتاب دانيال الذي في الإنجيل ولا بالكتب الكثيرة التي تحمل الاسم نفسه وتهتم بتفسير الأحلام، في عدة لغات. وعندما يتحدثون عن الفروق بينهم وبين الاثني عشرية فإنهم يركزون اهتمامهم على الأمور الصحية (حفظ الصحة) وخاصة ذبح الحيوان المريض من غنم وبقر وجمال فيأكلونه أفضل من أن يموت ويخسروه.

والقضية الأخرى التي يركزون عليها تخص المرأة: عدم تعدد الزوجات، وعدم الطلاق، وهجر الزوجة الحامل حتى تلد، ولديهم بعض العادات والتقاليد الأخرى مثل الخويتوك والنيرانغ والتي ليس لها علاقة بالزرادشتية.

ما زال الميراجيون يحتفظون باحترام كبير لحسن بن الصباح وكيا بزرگ أميد. بل يتهمهم أعداؤهم بأنهم يحترمونها إلى درجة احترام النبي محمد. ولعلها مبالغة متعمدة.

أما عن كونهم إسماعيليين فلم يتساءل أحد، وكان الأمر مضروباً منه ولا وجود لها في أذهان العامة. وأشهر قصة عندهم هي معجزة مقتل سيدنا جلال الدين وقطعوا رأسه فرموه في نهر شاه رود، فوصل إلى صافيد رود حيث كان زنجي يغسل وجهه من ماء النهر باقتراب الرأس المقطوع منه

وإذا بوجهه ينبض فجأة لمрад. وهذا سبب تسمية النهر باسم صافيد ورد أي النهر الأبيض. وقد يكون لهذه القصة أساس في مقتل صاحب جلال الدين حسن، (على ذكره السلام). في نزاع من أخي زوجته حسن بن نماور (الأحد، السادس من ربيع الأول عام ٥٦١ هـ ١٠/١٠/١١٦٦ م). وجاء في كتاب الجويني ص ٢٣٩ أن باكرد زاد طعنه بخنجر ولم يقل شيئاً عن قطع رأسه، وهو شيء مستغرب مستبعد لكن الخيال لا يكثرث بالحقائق التاريخية وواقعياتها أو عدم واقعياتها. نريد الآن أن نتطرق إلى ذكر مقطع من كتاب جامع التواريخ ص ٧٧، ٧٢:

في رمضان من سنة (٥٣٦) أخذ المراجيون بالدعوة السرية لهم، ونشركل أنواع الخرافات التي اعتادوا عليها، ويقولون أنهم فرس، وأن مؤسس ديانتهم ماني، ذلك الرجل الجاهل الذي لم يؤمن بدين أو نبي، وظهر في فارس، أيام الملك الساساني سابور، وأتبع ديناً يختلف عن الأديان، ويجمع نتفاً من الصابنية واليهودية والمسيحية، وهاجر إلى البلاد الصين فجمع الأتباع، ورجع إلى شوشتر حيث قبض عليه سابور. وتستر أتباعه وكما دینه عن الناس، وفي زمان قباد والد أنوشروان الحكيم أظهر واحد منهم دينه، واسمه مزدك، وقال أن ما هو واضح (ظاهر): ينسب إلى أهريمان، وكل ما هو خفي (باطن) ينسب إلى يزدان. وإن الجماعة يجب أن تكون كرجل واحد ولا ملكية خاصة له في أي شيء، وعليه تكون الممتلكات والأولاد والزوجات مشاعاً بينهم. وأصغى قباد إلى أقواله وقبلها فأجبره مزدك على التخلي عن أملاكه وزوجته وبنيه.

أما أنوشروان فد تحفظ عن هذه التعاليم وأنقذ أمه من المشاعية، وعندما استلم الحكم أعدم مزدك وأتباعه.

ونتيجة لهذه الأحداث كتم المانويون دينهم وبقوا حتى مجيء الإسلام، فتظاهر المزدكيون بالإسلام والمعتقدات الشيعية مع أنهم بقوا على إيمانهم بعقائدهم الأصلية. وعندما توفي مولانا علي، عليه السلام، وأخذ الحسن والحسين دوره في الجماعة وظهر محمد بن الحنفية، اعتبروه إماماً لهم، ومن بعده أبو مسلم الخراساني الذي كان له حفيد من ابنته جوهر، أصبح إمامهم وهاجر إلى الروم (تركيا).

والحقيقة أن هذه الجماعة اللعينة كلما رأت أمة تزدهر أو ديناً يعلو فإنها تدعي الانتماء إليه ظاهراً وتخفي دينها الحقيقي، حتى اليوم. فعندما رأى هؤلاء الفرس، أن الإسماعيليين أحرزوا (ظاهراً) رفيعاً، فعلوا كما فعل أجدادهم وأعلنوا أحقية (الديانة الإسماعيلية) وادعوا الانتماء إليها. كان سيدنا قد أوكل إلى ده خداكاخيخسرو أن يدخل هذا الشعب في دين الإسماعيلية فوافقوا أمره (حكمه) بكل رضى. ولما مات خلفه ولداه أبو العلا ويوسف فأنشغلوا بالمال والسلطة ونسيا دينهما وانقلبا ضد سيدنا الذي حاول أرجاعهما بالحسنى دون فائدة. انطلق رجل حائك يدعى بديل بالدعوة في أذربيجان مؤكداً أن الفرس كانوا على حق بينما الإسماعيليون ظاهريون (أتباع الدين التقليدي في الإسلام). أما الباطن فهو أن أنا أبا العلا ويوسف في مقام محمد وعلي وهذان مع سلمان آلهة ثلاثة يظهرون أحياناً في شخص واحد أو شخصين أو ثلاثة وأن الشريعة لأهل الظاهر. ولا توجد شرائع للحلال والحرام، لذلك يجب التخلي عن قراءة الكتاب والالتزام بالصيام، وحسب رأي أبي العلا كل شيء من المحرمات مسموح به، والنساء كحوض الماء

يرتوي منه كل ظمآن وألغوا المهور وأباحوا البنات للأخوة والأباء، وباختصار فإنهم أحلوا كل حرام وقالوا أن الجنة والنار هنا في الدنيا وليست في مكان آخر وأن كل من يؤمن بأن أبا العلا ويوسف إلهان سيولد بعد موته رجلاً وإلا حيواناً.

عندما انكشف أمر هذه الدعوة، ألقى القبض على بعض الرجال وأكروهوا على الاعتراف، ثم القبض على أبي العلا ويوسف في (يوم السبت التاسع من ربيع الثاني من سنة ٥٣٧هـ - ١١/١ / ١١٤٢ م) ورغم أنهما أعلنّا توبتهما ورغبتهما في العودة إلى الدين الصحيح فلم تقبل منهما فأعدما وأحرقت جثتهما، وخلال سنة كان أتباعهما يسجنون ثم يعدمون. وأريد الآن أن أذكر بعض معتقدات هذا الشعب المضلل.

المبدأ الأساسي عندهم عدم الإضرار بأي إنسان أو حيوان أو نبات وعدم الجمع بين زوجتين لأن كل واحدة ضرة للأخرى ثم الطلاق ممنوع وشراء العبد أيضاً وثمة خمس خطايا كل واحد لا تنجي من جهنم: قتل النفس بغير حق، الجمع بين زوجتين، التواصل مع عدو الجماعة (مخالف)، إيذاء الآخر بالقول والفعل (الجوارح) .

أما فيما يخص الولادة والبعث وأصل العالم ونهايته فهم مؤمنون بأفكار التقمص والتناسخ وكذلك هم يؤكّدون أن الجنة هي الشكل الإنساني. لكن الجنة الخالدة فهي في السماء .

أما تبرأ وتولّى، فهذه تعني بغض أعداء العلويين وحب أنصارهم. ويقولون أن ملوك الفرس ومحمد وعلي قد قتلوا أنفُساً كثيرة فهم في مقام واحد وكانوا عظماء جداً فكيف يكونون منصفين في قولهم؟ كيف يمكن لمحمد بن الحنفية أن يكون إماماً لكونه ابن علي، والحسن والحسين إمامان على قيد الحياة، وحتى لو صحت إمامته كيف انتقلت منه إلى إبراهيم بن محمد العباسي ومنه إلى أبي مسلم وبعده إلى جوهر، وأنه اختفى أكثر من خمسمئة عام لم يظهر فيها إمام؟

ليس في هذا القدر البسيط من المعتقدات المشوهة الساذجة إلا صورة مصغرة جداً عن المعلومات الأصلية، أما ذكر المانوية والمزدكية وأبي مسلم فليس له علاقة بالموضوع إلا لإظهار ميل الميراجيين إلى معتقدات الشيعة المتطرفة كما هو عند أهل الحق التي كانت منتشرة في العصر الوسط، والضغط الذي مورس عليهم وكان سبباً في إعلان القيامة الكبرى في الموت... والمفهوم من قصة أبي العلا ويوسف هو نقص الخبرة وفقدان السيطرة على الجماعة مما سبب لهم الانفصال عن التيار المتشدد لدى الإسماعيليين الأصوليين وخاصة لدى سيدنا وأتباعه. كما يمكن فهم قصة تأليه أبي العلا ويوسف على أنهما سادة كما هو معروف في تاريخ الإسماعيلية، وأن التشديد عليهم إنما هو التشديد في تطبيق النظام والمركزية في داخل الجماعة.

ومن المهم الإشارة إلى الدعوة في أذربيجان، فيبدو أنهما غريبة وليس لها علاقة بتاريخ آلوت، إنما هي استنتاج لا أساس له ومبنى على تشابه الاسمين: المراغيين والميراجيين، والحقيقة أنه لا يوجد ميراجيون إلا قرب لاماسار البعيدة عن مراغة.

تحدثت مع الميراجيين وسألتهم عن أبي العلا ويوسف فلم يعرفوا عنهما إلا اسمهما، فأما أن يكونوا تستروا عليهما أو على الأغلب أنهم نسوا كل شيء عنهما، وطبعي أن حصر المعلومات إنما هو للحفاظ على الصفات النورانية المقدسة من الأذى ثم إن النخبة من المانويين لا يقطعون الخبز والخضار

عند أكلها بل يكلفون أحد افراد الطبقة الدنيا بذلك. أما عدم الجمع بين زوجتين وتحريم الطلاق عند أهل الحق فيعود ذلك إلى فكرة عدم الإضرار بالغير وعلى الأغلب أنه من آثار الأفكار الزهدية والفقر الشديد لدى سكان الريف. والمعروف حتى الآن ندرة تعدد الزوجات في حياة الفلاحين، لأنه من مظاهر الترف المكلفة. على كل حال، مهما كان نوع هذه المعتقدات الشعبية في ديار الموت الجبلية ورودبار وما جاورهما، فإنها حررت وبدلت على أيدي الفاطميين وإسماعيلية سيدنا التي ما زالت تقدر سيدنا وكيا بزرگ أمید. أما المستوفي مؤلف (نزهة القلوب)، والمعاصر لرشيد الدين فإنه يذكر إشارة موجزة أن سكان رودبار على مذهب الباطنية أي الإسماعيلية. وإن القرون التي مضت في حالة من الجهل والأمية والعزلة لها آثار في مسح وسحق المعتقدات القديمة. لكن التغير الطفيف في أسس وظروف الحياة ساعد الجماعة بشكل عام على المحافظة على هويتها وعلى كثير من طقوسها المقدسة.

لا يختلف الميراجيون اليوم كثيراً عن المجتمع الذي يعيشون فيه. فالرجال لا يكادون يتميزون عن غيرهم والنساء في زيهم التقليدي القديم الذي كان شائعاً في الموت ورودبار، وكثير من المناطق الزراعية في إيران والشيء الخاص الذي يمتازون به هو روح المحافظة التي لم تقبل الأرياء من المدن. يبدو أن الميراجيون أكثر صحة من جيرانهم من غير الطائفة، وخاصة النساء، وقد يعود ذلك إلى مبدأ (حفظ الصحة) وعدم أكل الحيوان المريض ثم إنهم لا يكثر من أكل اللحم، والميزة الرئيسية لهم هي التزامهم بنظامهم وعاداتهم، كما هو معروف لدى الطوائف الأقلية الصغيرة والمنعزلة.

ولهذا السبب نفسه حافظ الميراجيون على لهجتهم الخاصة التي يبدو أنها أحد أشكال لغة رودبار التي تختلف نوعاً ما عن لهجات الموت. وقد يكون من الممتع دراسة لهجات رودبار وتحديد موقع اللهجة الميراجية فيها. يجب تدارك هذا الأمر لأن تلاشي اللهجات المحلية يزداد سرعة يوماً بعد يوم.

وليس إحصاء عدد الجماعة صعباً فقط بل كذلك عدد القرى التي يتواجدون فيها، حتى أنه لا توجد قرى مخصصة للميراجيين وحدهم، ولم يبق في القرى التي كانوا يحتلونها في الماضي إلا بعض الأسر القليلة.

والإحصائيات التي قمت بها من خلال سؤال أفراد من الطائفة في عدة قرى تختلف كثيراً من مكان إلى آخر، والقرى موجودة على جانبي وادي نهر شاه رود، وإلى اليسار من الجبال الفاصلة بين شاه رود وقرزوين.

القرى التي على الجانب الأيمن هي دكن أكبرها، واشت، أفيرك، علي آباد، دور شوك، ياج، وعلى الجانب الأيسر. كالين، زنياسوج، وارتاوان، صابوجين، كاش آباد، أسيمورد، مشامتين، سوتاكاش، هالورود، أنثوراسوج، أما عدد الأسر في كل قرية فهو غير ثابت وقد يقدر هذا العدد بـ ١٠٠٠ / أسرة ويبدو أن التفكك الطائفي يتزايد بسرعة، وليس لديهم طبقة رجال الدين (الكهنة). وزعمى القرية تكون لذوي الأحوال الحسنة الذين يحتلون موقع كات خده/شيخ القرية، وبعضهم يرفض الاعتراف بوجود (رئيس) للجماعة^(١).